وثائق التاريخ المديني لمدن بيروت وطرابلس وصيدا وصور

من خلال رحلتي الأب لويس لورتيه وجون كارن

بقلم د. أنيس الأبيض

ترك الرحالة الأجانب فيضا من المعلومات الوثائقية التي وقفوا عليها من خلال تجوالهم في بلاد الشام، إذ أمكن لهم أثناء تنقلهم في الديار الشامية أن يسجلوا العديد من الانطباعات عما شاهدوه في شتى الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية. ومما يستوقفنا في هذا المجال ما كتبه الدكتور لويس لورتيه أحد العلماء الفرنسيين المشهورين الذين أموا بلاد الشام، ووضع كتابا ضخما مزينا بالصور دعاه باسم سوريا اليوم. نظم لورتيه رحلتين إلى لبنان وسوريا وفلسطين، أحدهما في سنة ١٨٧٥ م والثانية في سنة ١٨٨٠ م ، حمل معه منهما على حد قوله مجموعات علمية خطيرة وحصاداً غنياً من التذكارات.

حطّ لورتيه رحاله في مدينة طرابلس ما بين رحلته الأولى في العام ١٨٧٥ م ورحلته الثانية عام ١٨٨٠ م، شاهد كثير من الأمور قد تغيرت، هذه المدينة التي سماها أهالي سوريا طرابلس يشطرها شطرين نهر قاديشا الذي اسمه الحقيقي نهر أبو علي. يصف لورتيه داخل المدينة فيشير إلى أنه من أفتن ما تقع عليه النواظر، فليس ثمة إلا شوارع صغيرة معتّمة تسترها القناطر، وبيوت مبنية بالحجارة المنحوتة، وشرفات ذات مرام ونوافذ بشكل قوطي وسطوح بشرفات.

أما من حيث أماكن العبادة فيها فيذكر لورتيه أن الطوائف المسيحية شيدت ثماني عشرة كنيسة، خمس منها أورثوذكسيات وسبعا كاثوليكيات وثلاثا مارونيات وواحدة ملكية وواحدة بروتستانتية، والمدارس التي تخص هذه الطوائف كثيرة جدا، ولكن لا واحدة منها للأورثوذكس، وللمسلمين عشرون جامعا تحتوي مكاتب غنية تستحق أن يدرسها السائح العالم درسا دقيقا.

أما ما يربط طرابلس بالميناء فهي طريق واسعة ولكنها رديئة التعبيد، هكذا كانت حالة الأمكنة في سنة ١٨٧٥ م ولكن الأمور تغيرت في رحلته الثانية عام ١٨٨٠ م فليس ثمة حمير تنهق ولا جحاش بطرة ولا فرسان أنيقون، ويظهر أن هناك تغييراً محسوساً قد طرأ على حالة طرابلس، عهد رحلة مؤلفنا الثانية.

صحيح أن وضع طرقات المدينة بقي على ما هو عليه إلا أن ما شاهده يدلّ على أن المدينة كانت على أبواب قفزة على صعيد المواصلات التي تربط طرابلس بمدينة الميناء.

ففي هذه الرحلة شاهد لورتيه قطارا "ترامواي"، كما يخبرنا بأن هناك شركة ترغب في مواصلة هذا العمل التمدني بأن تنشئ بدلا من هذا القطار سكة حديد تسير عليها شاحنات يمكنها أن تنقل البضائع المعدة للإصدار والتصدير. وقد أبدى لورتيه شكه بإمكانية إنجاز هذا المشروع على الرغم من أنه رأى زهاء خمسين امرأة من مسكينات النساء، شاحبات، هزيلات، حاملات قففا ملأى بالتراب، يشتغلن بشق الأرض التي سوف تبنى فيها المحطة.

أما سكان مدينة الميناء فأكثرهم بحارة ونجارون لأن صنع القوارب لا يزال يشغل عدداً كبيراً من العمال، وفي هذه الضاحية خان ومنازل جميلة ومخازن ووكالات لمختلف شركات الملاحة.

يعطي لورتيه صورة عن حالة طرابلس الاقتصادية فيذكر أن الحرير بالتأكيد هو أهم ما تنتجه طرابلس وتصدره إلى البيوت التجارية في ليون، ولكنه يأخذ على هذا الحرير خشونته وإعداده الرديء وهذا ما جعله يفقد في السنوات الأخيرة كثيرا من

قيمته القديمة. غير أنه يشيد بجودة الإسفنج الذي يصاد على الشاطئ الطرابلسي، فهو من نوع ممتاز وأكثره يصدر إلى مدينة مرسيليا ويشتريه تجار فرنسيون، ويراوح ثمن الألف غرام منه ما بين الخمس والعشرين أو الأربعين قرشا. وتصنع طرابلس كثيراً من الصابون يصدر إلى عدد كبير من مدن البحر المتوسط وجزائر الأرخبيل الرومي، كما تصدر طرابلس أيضا جوز العفص الذي يأتيها من سواحل سوريا ولبنان ومن مناطق أبعد من وادي العاصي ومن لبنان الشرقي، ويرسل التبغ الذي ينتجه السهل إلى مصر خصوصا.

ينتقل لورتيه من طرابلس إلى بيروت ويرى أن هذه المدينة مثّلت دوراً عظيماً في يقظة الشرق. وبيروت اليوم تختلف عما كانت عليه منذ سنوات، وبالرغم من أن النقليات في بيروت كانت تتم على ظهور الحمير والبغال والجمال فإن لورتيه يسجل وجود عربات ذات مقاعد وعجلات خفيفة، ذات دواليب أربعة مكشوفة في الضواحي الجديدة للمدينة.

أما أسواق بيروت فهي كجميع أسواق مدن الشرق صغيرة متداخلة على جوانبها حوانيت، ومن هذه الحوانيت يمكن أن يشتري المرء أبدع الأشياء المصنوعة في بيروت، قطع الحرير المنسوجة بذوق، قطع مطرزة بفن جميل، آنية القهوة الفناجين المعمولة من الفضة المخرمة تخريما دقيقا.

أم مقاهي بيروت فهي كثيرة مفتوحة بسعة، فيها دواوين يجلس عليها الأربعاء متعودوا المقاهي وفي أفواههم الشبق أو النرجيلات.

أما المسافرون فينزلون في الخانات. أما مآذن بيروت كما يصفها لورتيه فهي مربعة. وأما الجوامع فإنها تستخدم إلى جانب كونها مركزا للعبادة ملجأ للدراويش والمتسولين وأحيانا للمرضى.

ويعجب مؤلفنا بمستشفيات بيروت المدارة إدارة حسنة، أنشأتها راهبات الناصرة فيها أطباء علماء مخلصون. أما دار حاكم بيروت فهو قصر من قصور الأمير فخر الدين، يمكن للزائر أن يشاهد فيها غرفا تستحق الاهتمام. كما يرى في أطراف المدينة بقية حصون وأبراج شيدها أحمد باشا الجزار.

يسجل لورتيه ازدياد عدد سكان بيروت، فهم اليوم زهاء ثمانين ألفا، نصفهم تقريباً مسلمون وسائرهم مسيحيون وموارنة وأورثوذوكس ودروز وإيطاليون وغيرهم، وأهم المؤسسات الدينية الموجودة في المدينة هي الرسالة البروتستانتية الأميركية التي نزلت في هذه البلاد سنة ١٨٣٧م.

وقد أسست عدة جمعيات ومدارس ابتدائية وعليا، كما أنشأت معهداً طبياً يخرج في كل سنة عددا من الدكاترة المثقفين القديرين، وفيها سبعة أساتذة أوروبيين يساعدهم

ثمانية معاونين أوروبيين ووطنيين، فيعلّمون العلوم والطب، وفي سنة ١٨٨٠م بلغ عدد التلامذة مائة وثمانية، وقد جهزت فيها مختبرات واسعة للفيزياء والكيمياء والمواد الطبية وعلم الحيوان والنبات، كما يعرج على متحف التشريح (باثولوجي) ولشدة إعجابه بمعهد بيروت الطبي تمنى لورتيه لكثير من المعاهد الطبية الفرنسية أن يتشبه به.

كما يشير إلى وجود مدرسة فخمة لراهبات القديس منصور دي بول، وتربي راهبات الناصرة مائة وثلاثين بنتا في مدرستهن الداخلية. كما شيد اليسوعيون بناية عظيمة أعدوها لتعليم الفتيان العرب. ويستنتج لورتيه من كثرة وجود البعثات التبشيرية في المدينة وتزاحمها لفتح مدارس لها، أن في بيروت مزاحمة حقيقية بين مختلف المذاهب المسيحية.

كما يوجد في ضواحي بيروت أمكنة لتربية دود القز ومعامل لحلّ الحرير، كما يوجد فيها نوع من الأنوال لحياكة القطن. كما يشيد بعمل الصاغة الذين يصنعون بفن جميل مصنوعات دقيقة مخرمة. كما تنتج الضواحي خمرة مشهورة تعرف بالخمرة الذهبية.

ويتوقف لورتيه إلى ما تلبسه نساء بيروت، فالنساء المارونيات والدرزيات تلبسن من الثياب ما يقارب الثياب التي تلبسها نساء أزمير وسواحل آسيا الصغرى. وتلبس نساء الطبقة الميسورة في داخل منازلهن الثوب الوطني القديم لا العمامة. إلا أن لورتيه يأسف لانتشار الأزياء الأوروبية ويعتبرها من نكد الحظ الذي سيؤثر على الأزياء الوطنية.

أثناء انتقاله إلى صيدا يشير أن المدينة تقوم مكان صيدون القديمة والمدينة شكلها مثلث كبير، وشوارعها رصيفان بينهما شبه ساقية يقف عليها المارة، أما شوارعها فهي غير معتنى بها تحتوي أحداثا من الأقذار.

أما بيوت صيدا فهي على العموم أعلى من سائر بيوت الساحل، وليس من النادر أن ترى فيها بيوتا ذات طبقات متعددة. وأهم منتوجاتها العنب والحبوب والقطن والحرير، كما ينتشر فيها تربية دود القز، كما تنتج بساتينها كمية كبيرة من الرمان والمشمش واللوز والبرتقال والليمون والإجاص.

وفي المدينة دير للفرنسيسكان ومدرسة لليسوعيين وميتم لراهبات مار يوسف وللإرسالية البروتستانتية الأميركية فرع في صيدا ازدهر منذ بضع سنين.

من صيدا انتقل لورتيه إلى مدينة صور التي ازداد عدد سكانها وهو يربو على الخمسة آلاف، وبرأيه أن هذا العدد لا بد أن ينمو إذا تمت الإدارة التركية في المدينة بتعميق المرفأ وخصوصا إذا أنشأت طرق المواصلات التي لا يوجد لها أثر في هذه المنطقة، ونصف سكان صور الحاليين من المتاولة والباقون من العرب الأورثوذكس. ومنذ خمس سنوات تصدر مدينة صور كمية كبيرة من القطن والحرير والتبغ وحجارة الرحى البركانية، حجارة تحمل من حوران إلى صور على ظهور الجمال. وللرهبان الفرنسيسكان وراهبات القديس يوسف ديران في داخل المدينة وقد بنت الرسالة الأميركية مدارس هي في ملء الازدهار، كما أن المدينة تشهد حركة بناء لمنازل جديدة، كما أن الحقول المجاورة تستثمر أفضل استثمار وتنتج أخصب إنتاج وبرأيه أن الرقي والتمدن سائر في صور وبشكل جدي. أما شوارع المدينة فضيقة وتحتاج إلى عناية تحيط بها منازل مخرقة بفتوحات واسعة قوسية، وبيوت صور على طراز بيوت المناطق الحارة في الشرق، ليست مسقوفة بالآجر لكن سطوحها من الطين المضروب المخلوط بالهشيم.

مع رحلة جون كارن إلى المدن اللبنانية

والتي استهلها بالحديث عن بيروت التي اعتبرها أوفق مكانا يتخذه المرء مسكنا في لبنان فهي بديعة الموقع على أنه يأخذ عليها وجود بعض القاذورات إذا ما قوبلت بطرابلس الحسنة البناء بنهرها المنساب إليها انسيابا عذبا.

يعتبر جون كارن مدينة بيروت مرفأ لدمشق ولداخل سوريا، وموقعها أصلح لتقبل المشحونات والأنباء وما أشبه من أوروبا، فنشاطها التجاري أعظم من نشاط كل مرفأ آخر في سوريا، وفيها يقيم عدد موفور من التجار، بالإضافة إلى القناصل ووكلاء الدول الأوروبية المختلفة.

كما يشيرإلى أن بيروت هي في نظر الأوروبي أوفر حياة من دمشق بما لا يقاس، فلقد تحسنت بيروت وضواحيها في الآونة الأخيرة ولا تزال آخذة في التحسن، تشهد على ذلك المساكن والمباني الجديدة التي تبنى في كثرة ومما يؤكد على أهمية مدينة بيروت ما أشار إليه جون كارن من ارتفاع أجور المنازل فيها نظرا لوجود كثير من الفرنسيين الذين نزلوا المدينة. فإن أجر بيت صالح يتسع لعائلة صغيرة يبلغ في هذه المدينة ثلاثين ليرة استرلينية. أما سعر اللحم فيبلغ أربع بنسات لكل أوقية، وسعر النبيذ أربع بنسات لكل زجاجة، أما الخمرة اللبنانية فسعر الزجاجة تسع بنسات أو شلن. كما يوجد في بيروت خبازان فرنسيان مما يجعل الخبز فيها جيدا، كما يعيش فيها القناصل والتجار من شتى الأمم عيشة اجتماعية ودية.

ولبيروت أفضلية أخرى بارزة على سائر المدن في سوريا وهذه الأفضلية برأي مؤلفنا تقوم على حرية العبادات الدينية وامتيازاتها ففيها يتلاقى رجال مثقفون أقبلوا من الأديرة في الجبال بينهم الأساقفة والكهنة واللاهتيون من موارنة وأورثوذكس وكاثوليك. ويبدو أن بيروت أعجبت جون كارن إلى الحد الذي ذكر فيه أنه قد أقام فيها دونما ضجر أو شعور بالسأم. فيقارن بين إقامته فيها ووجوده في دمشق، فهذه الأخيرة قد كفته لبضعة أسابيع ولكنه لم يشعر بهذا الضجر فترة إقامته في بيروت.

ولمرفأ بيروت أهمية اقتصادية جمة ففيه تقوم جملة من مباني القنصليات الأجنبية، والمدينة تشكل مركزاً حيوياً لتجارة الطائفتين الدرزية والمارونية، إليها يصدرون قطنهم وحريرهم فيأخذون عوضه الأرز والتبغ والنقود، ثم بهذه يشترون القمح من سهول البقاع وحوران. أما أهم المواد التجارية التي تتعاطاها بيروت فهو الحرير الخام، يأتي بعدها القطن والزيتون والتين وهي كلها تصدر إلى القاهرة ودمشق وحلب.

ويرى جون كارن أن النشاط التجاري في بيروت يزداد يوما بعد يوم كما يعتبر ميناؤها أفضل الموانئ على طول الشاطئ، فهو يشهد بوادر حركة جديدة أغرت أصحاب الأعمال في أوروبا لإنشاء الأعمال والمتاجر فيها. ونظراً لأهميتها فلقد قصدها للإقامة تجار كثر يعيشون فيها عيشة بذخ في منازل مريحة. كما تفد إليها

السفن من مختلف الأمم الأوروبية دونما انقطاع وعلى ظهرها السياح الذين يجدون بيروت خير نقطة يبتدئون منها سياحتهم في الشرق.

لم يلبث جون كارن أن حطّ في مدينة طرابلس التي يعتبرها أجمل مدن لبنان منظراً، فبيوتها مبنية بالحجارة بنيانا متينا، ثم هي في داخلها معدة إعداداً نظيفاً وتحيط بها وتزينها الحدائق البهية التي تختلط بالمنازل في المدينة. فطرابلس أغنى بالحدائق والبساتين من بيروت، وحظّها من الوقاية الصحية يفوق حظّ صيدا وعكا. وعلى ذلك يرى جون كارن أن طرابلس تجمع كل ميزات الراحة والمشاهد البديعة، وهي ميزات تغري الغريب الذي يلتمس العافية أو المتعة.

كما يوجد في طرابلس جملة من التجار الأروبيين المستوطنين، وفيها قناصل لفرنسا وانجلترا والنمسا، وأهم بضاعة فيها للتصدير هي بضاعة الصابون، وقد سبق أن كانت تصدر منه نحو ثماني مائة كنتال في السنة، لكل كنتال سعره ثمانين ليرة استرليني.

على أن جون كارن يخبرنا أن تجارتها قد أصيبت مؤخرا ببعض التدنّي دون أن يبين أسبابه ويصدر أكثر صابون طرابلس إلى طرطوس ومن ثم إلى الأناضول وجزر الإغريق. أما الخان الذي ينزله صناع الصابون فهو صرح كبير حسن البناء،

وتلي الصابون في الأهمية بضاعة الإسفنج وهو يؤخذ عن الشاطئ إلا أن وجوده يكون على بعض عمق من البحر.

أما شوارع المدينة فبعضها واسع بالقياس إلى الشوارع من الشرق وفيها أبنية من حجر ذات طابقين، غير أن مؤلفنا يرى أن لا شيء يدل على الازدهار والرخاء لهذه المدينة، من هنا يترك وضع طرابلس الحالي انطباعا لدى المسافر بأن أفضل أيامها قد انقضى.

وتتميز طرابلس عن غيرها، فأسواقها الضيقة العظيمة الطول ملأى بالبضائع المعتادة وتدور فيها الحرف والتجارات الصغيرة بنشاط مرموق. ولما كانت المنطقة المجاورة لطرابلس تنتج حريرا من صنف جيد ، فإن أكثر الأهالي يشتغلون بحياكة الزنانير الطويلة المقلمة.

أما تجارة المدينة فتكاد تكون احتكاراً للمسيحيين لا سيما الأورثوذكس. ومما يلفت النظر ما كتبه جون كارن عن طرابلس إذ يشير إلى وجود جملة من العائلات الفرنسية التي تستوطن المدينة وتهتم بفروع مختلفة من صناعة نسيج الحرير، كما يعمل الفرنسيون على إقامة تجارة رابحة في مادة الحرير الخام إذا تيسرت الأسواق للتصدير.

ويعزو جون كارن عدم تشجيع الصناعة والإنتاج في هذه البلاد إلى طبيعة الحكم الرديء الذي يحكم هذه المناطق مع أن خصوبة الأودية المجاورة كفيلة بإنتاج الحرير مضافة إليه مواسم أخرى ثمينة وسخية.

يصل جون كارن إلى صيدا، فيشير إلى أن هواء المدينة صحي جدا، وضروريات الحياة فيها حتى بعض الكماليات رخيصة، وأرخص شيء فيها اللحم وإن لم تكن له سوق نظامية مخصوصة به. وتتوفر في صيدا الثمار الممتازة، كما تباع فيها الخمور اللبنانية بأسعار معتدلة.

ويرى مؤلفنا أن تكاليف المعيشة في صيدا هي أدنى منها في بيروت إلا أنها تفتقر إلى الحياة الاجتماعية العامرة التي تتمتع بها بيروت. ولكن حوانيت التبغ فيها تظهر بمظهر جميل متنوع فتتراءى القطرميزات الزجاجية المحلاة بالأزهار الذهبية ومنها ما كان ملأى بالتبغ، كما تنفتح أسواق صيدا المتعرجة الطويلة عن احتياطي لا بأس به من البضائع وعن الزوار يلبسون الألبسة اللائقة.

أما صادرات صيدا فهي القطن المغزول والحرير والقمح والخشب والزيت. أما مستورداتها فهي عبارة عن الأقمشة والبهارات والحديد والأصبغة.

من صيدا ينتقل جون كارن إلى صور التي تشتمل على جملة من مباني حجرية جيدة كما يشير إلى وجود جامع وسوق وثلاث كنائس بائسة. ويبدي مؤلفنا إعجابه بأهل صور فعند أهلها مودة ولطف وفي بيوتها وسائط للراحة، ولكن المدينة تخلو من المشارف وفيها حمام واحد من أبسط صنف وليس فيها حكواتي، وينعدم وجود عيون الماء ومحطات القوافل للغرباء، ومع ذلك فإن باستطاعة الوافد الغريب أن يتكل على ضيافة أسرة من الأسر. وباعتقاد مؤلفنا أن ظنه بحسن استقبال أهل صور لن يخيب.